

## الاغتراب الاجتماعي عند أبي العلاء المعري

أ. بركة نصيرة -

كلية الآداب واللغات والفنون -

جامعة سيدي بلعباس

يقوم الاغتراب أساساً على غياب العلاقات الإيجابية مع الآخرين مما يؤدي إلى تفكك للقيم وللمعايير الاجتماعية فيصبح الإنسان غير قادر على التّجانس مع الآخر والتّحكم في انتمائه للمجتمع، فإذا تمرّد الإنسان عن القيم ورفضها انفصل اجتماعياً عن مجتمعه ويكون الاغتراب هنا هو الحالة التي [يشعر فيها الأفراد بالانتماء إلى المجتمع أو الأمة، حيث العلاقات الشخصية غير ثابتة وغير مرضية]<sup>1</sup>.

فغياب المعايير الاجتماعية في العصر العباسي زعزع العلاقات الإنسانية فشاع الكذب واللّهو والتّفاق وكثر التّحزّب لكل شاعر والانتماء لكل عقيدة ففقدت العدالة الاجتماعية وانتشر الظلم فثار الشاعر ساخطاً وغاضباً فقد رأى فيما يصنعون ابتذالاً ورأى تعفّفاً عن هذه المزالق فيما يشعر هو به، والمتصفّح لدواوين المعري يلمس أشكالا عديدة من الاغتراب الاجتماعي الذي بناه على أساس فلسفة خاصة، فعاش يصارع أفكارهم وتصرفاتهم محاولاً تصحيحها بالتلميح مرات وبالتصريح مرات كثيرة.

يقول لك أنعم مصباحاً متودّد إليك وخير منه أغلب أصبح

رَجَوْتَ بِقَرَبٍ مِنْ خَلِيلِكَ مُرَبِّحًا وَبَعْدَمٍ مِنْهُ فِي الْحَقَائِقِ أَرْبَحٌ<sup>2</sup>

[ويرى ملفاً سيمان أن هذا النوع من الاغتراب هو شعور بالغموض أو نوع من الرفض للقواعد والتعليمات التي يفرضها المجتمع ويمكن أن نربط بهذا التوقع القول بأن أنماط سلوكه غير اجتماعية يمكن أن تكون ضرورية لتحقيق غايات هامة في حياة الفرد]<sup>3</sup>.

وأكثر ما رفضه المعري ما فُرض عليه من رجال الدين الذين أبدوا التزمّتَ وأفرطوا في التظاهر بالوقار والورع لكن ما يُبدون في نظر المعري غير ما يُبطنون، فأبت نفسه أن تجاريهم في ممارساتهم في مناسكهم الدينية، فصاغ لنفسه قناعات خاصة وبنى لنفسه معتقدات قوامها العقل الذي رأى فيه الخلاص. فالعقل وسيلة تطهير الدين مما لحقه من شوائب وتُرّاهات وخرافات.

هي غُرْبَتَانِ فَعَرَبَةٌ مِنْ عَاقِلٍ      ثم اغترابٌ مِنْ مُحْكَمِ عَقْلِهِ  
والطبع يَثْبُتُ كَالهَضَابِ وَمِنْ      يَرُمُ نَقْلًا لَهُ يَعْجِزُ وَيَعِي بِنَقْلِهِ  
والعقلُ يُثْقَلُ كُلُّ غَاوٍ وَظَالِمٍ      وأخو الديانة ما يُحْسُ بِثِقْلِهِ<sup>4</sup>.

فغربة عقله هذه هي التي تميزه عن بني جنسه، وهذا التميّز يجعله يُمعِن النظر ويكثر التفكير ويسير في ركاب عقل يوجّهه ويسيره وهذا ما أكده العقاد أيضا في قوله: [ فهذا الحكيم الذي عُرِضَ على فكره كل أصل من أصول الحكمة وكل مذاهب الدين، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهائه ولم يتخذ له إماماً غير العقل لصحبته ومسائله... ]<sup>5</sup>.

فاعتماده على العقل إنما كان وسيلة يحارب بها ما تفشى من ظلم وقهر وفساد وعقيدة وزيف مودّة بين الناس.

فإذا كان الإنسان من أكثر الكائنات حاجة إلى الآخرين أثناء مراحل طفولته وشبابه من أجل تلبية حاجاته الأساسية يجب عليه أن يستجيب لأوامر ونواهي من يساعده على تلبية هذه الحاجات، لكن المعري لم يعايش حقيقة الاندماج الاجتماعي فرأى نفسه غير ملزم بمكافأة الناس لما علّموه إياه لأنّه اعتمد على نفسه في أغلب الأحيان وإن [ التنشئة الاجتماعية التي يراها علماء الاجتماع عملية ديناميكية فيها التفاعل وتبادل التأثير والتأثر بين الفرد والمحيط]<sup>6</sup>. كانت تنشئة متزعزعة فيها انحراف يصل إلى درجة التطرف أحياناً، فلم يكن المعري يحسن الظنّ بالناس فكان يميل إلى العزلة ويكثر من التطير والقلق والشك:

فأيُّ الناس أجعله صديقاً وأيُّ الأرض أسلكها ارتياداً  
ولو أنّ النجومَ لـدي مال نفث كفاي أكثرها انتقاداً<sup>7</sup>.

وكثرت التزايدات والخصومات واشتدّت المشاحنات بين رجال الدين والفكر فيوجد من اعتبر هذا الصراع إذكاءً للنشاط الفكري وثراءً له لكن المعري وجدّه تفسخاً عقائدياً وبعداً عن سلطان العقل الذي يُقنّن أسس الحياة ويلجم الأهواء:

وجدت الناسَ في هرج ومرج عوأة بين معتزلٍ ومرجي<sup>8</sup>

وقال:

واعلم أنّ ابن المعلّم هازلٌ بأصحابه والباقلاني أهزلٌ  
وكم من فقيه خابطٍ في صلالةٍ وصحبته فيها للكتاب المزلّ<sup>9</sup>.

اغترب أبو العلاء عن هذه الفئة من الناس التي سخّرت الدين لمصالحها وأفّتت بما يثلج صدرها ويوعز صدر الناس فأمعن ينظر في مصادر ثقافتهم وتبيّن في معتقداتهم فتأكد له بأنّ العرقية والانحراف الفكري في المذاهب أساس ثقافتهم المتطرفة فكان شاعرنا يرجئ مرة أخرى الحكم للعقل حتى يميّز بين الإيمان الصحيح من الزائف وطالما ربط بين أسس الدين وأخلاق المجتمع ودعا إلى التدبر في هذا الدين الذي أصبح في العصر العباسي تقليداً موروثاً يتعاقب عليه الأبناء بعد الآباء دون تحكيم للعقل.

عاشوا كما عاش آباءُهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا  
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون من غي لمن سجدوا<sup>10</sup>

فسفينة أبو العلاء المعري الاجتماعية واجهت رياحاً سياسية وأعاصير دينية وعواصف طائفية، وقد سعى هذا الرُّبان جاهداً ليصل بسفينته إلى برّ الأمان مواجهاً الأمواج حيناً وساخطاً على هذا القدر الذي آل إليه حيناً آخر.

وكان يرى الشاعر في سجايا الناس غدر وخيانة ونفاق فما ولّد لديه الشعور بالمرارة والألم:

أمسى النفاق دروعاً يُستجنّ بها  
من الأذى ويقوّي سرّدها الحلف<sup>11</sup>.

وربط المعري بين الدين والأخلاق إيماناً منه بأنهما ركنان  
أساسيان في بناء مجتمع سليم، فالحياة الاجتماعية تقوم على الصلات  
المتينة والعلاقات المحكّمة بين أفراد الأسرة والمجتمع على حدّ سواء،  
وعلى سياسةٍ سليمةٍ وعدالةٍ قويمَةٍ ونظامٍ اقتصاديّ متينٍ، وأيّ خللٍ  
يمسّ ركناً من هذه الأركان يُقوّضُ بناء المجتمع ويهدم كيان الأسرة  
لذلك وجدناه ينبّه الناس إلى خطر المفاصد ويحثهم على فعل الخيرات:

عليك بفعل الخير لو لم يكن له من  
الفضل إلاّ حسنه في المسامح<sup>12</sup>.

صیحات لم تجد صداها في المجتمع العباسي، فاغترب أبو العلاء  
عن هذا المجتمع لما لمست فيه من انحراف وفساد وتحلّل من القيم  
ومجانية للمعايير الأخلاقية بعدما شجن أشعاره بمشاعر الحزن والتشاؤم  
وصدح صوته بصیحات النصيح والإرشاد.

فقدُ فقدَ الصديقُ وماتَ العدى      واستحسنَ الغدرُ وقلّ الوفاءُ  
واستشعرَ العاقلُ في سقمِهِ      أنّ الردىّ مما عناه الشفاء<sup>13</sup>.

تصدرت المرأة المشهد الشعري منذ فجر الإبداع، وحضور الأنثى  
في الشعر عموماً حضورٌ قويٌّ لكنّ أبا العلاء المعري نظر إلى المرأة نظرة  
فيها تناقض وسلبية لأنه ما فتئ يصوّر جمالاً أحسّه وتحسّسه ببصيرته

فقط وكان ظلام ليله بفقدان بصره يقف دائماً أمام اكتشاف نور  
الجمال الأنثوي.

سَرَتْ بِقِوَامٍ يَسْرِقُ اللَّبَّ نَاعِمٍ  
إِلَى مُدْلَجٍ تُلْقَى الْبَرَا أَخْتِ مُدْلَجٍ<sup>14</sup>.

فللمرأة عند أبي العلاء صورتان: صورة الأم وصورة الأنثى.

أول امرأة عرفها الشاعر هي أم فتح عينيه ليراها تسقيه من نبع  
حبها وتزیده من ثراء عطفها، أم ما زالت تنير له درب ليل طويل:

الْعَيْشُ ماضٍ فَأَكْرَمَ وَالِدَيْكَ بِهِ وَالْأُمُّ أَوْلَى بِأَكْرَامٍ وَإِحْسَانٍ  
وَحَسْبُهَا الْحَمْلُ وَالْإِرْضَاعُ تُدْمِنُهُ أُمْرَانِ بِالْفَضْلِ نَالَا كُلُّ إِنْسَانٍ<sup>15</sup>.

فالمرأة الأم عند الشاعر رمز للتقديس والترفع تركت كبير الأثر  
في تكوينه ومساعدته على قضاء حوائجه وتبيين طريقه، وبفقدانها فقد  
الأمان وفتح له باب الاغتراب على مصراعيه، رحلت أم المعري عن  
الحياة وبرحيلها اعتزل الشاعر الدنيا وما فيها، هذه الأم صنعت قرارا  
آخر برجليها عندما رمت به في غياهب حبس اعتزل فيه الناس،

سَمِعْتُ نَعِيَهَا صَمٌّ صَمَامٍ وَإِنْ قَالَ الْعَوَاذِلُ لَا هَمَامَ  
وَأَمْتَنِي إِلَى الْأَجْدَاثِ<sup>2</sup> أُمُّ يَعْزُ عَلَيَّ أَنْ سَارَتْ أَمَامِي  
وَأَكْبَرُ أَنْ يُرْثِيَهَا لِسَانِي بَلْفِظٍ سَالِكٍ طُرُقَ الطَّعَامِ<sup>16</sup>

أحدث فراقاً غربة موحشة في نفس الشاعر وهو لم يتجاوز  
السابعة والثلاثين وظلام حالك زاد على الظلام الذي عرفه وتعايش  
معه سابقاً.

أمّا الصورة الثانية للمرأة عند المعري فهي صورة المرأة الأنثى  
الذي لا يُعْرُك حضورها في بعض المقدمات الغزلية، هذا الحضور الذي  
قد يبدو إعجاباً لكنّه في باطن الأمر اقتفاء لأثر من سبقه من الشعراء  
في تأثيث وتشكيل القصيدة لا أكثر.

علاقة المعري بالمرأة ناشئة من علاقته بالوجود بكل ما فيها من  
امتناع وسلبية وعزوف وتشاؤم، فربط بين الأنثى والدنيا وبين الأنثى  
والأفعى لما يجمعهم من قواسم مشتركة كالغدر والنفاق والتضليل.  
فهذا الشاعر في علاقته مع المرأة تائر منتفض يرمقها بعين الاحتقار  
ويراها مصدراً لإنتاج الخطيئة لأنها المحور الأساسي الذي يدور حوله  
تجدد النسل واستمرار البشر:

عَروسُكَ أفعى فهب قُربَها وخَف من سليلك فهو الحَنَش<sup>17</sup>.

وقد تمكّم الشاعر من المرأة التي ساءها العقم ورأى أنّها لا تميز  
بين النافع والضار،

قد ساءها العقم لا ضمّت ولا ولدت

وذاك خير لها ولو أعطيت رشداً<sup>18</sup>.

وبنى المعري نظرتَه للمرأة الأنثى على أساسٍ من السلبية والتشاؤم  
فالعالم تحفة السعادة والطمأنينة لو لم توجد فيه امرأة:

بدءُ السعادة أن لم تخلق امرأةٌ وهل تودّ جمادى أنّها رجبٌ.

وتعليم المرأة يزيد في غطرستها ويفتح أمامها أبواب المجون فهي  
رمز الإغراء والإغواء، يجذب الشاعر لو تكتفي هذه المرأة بتعلم الغزل  
والنسيج وتبتعد قدر الإمكان عن تعلم القراءة والكتابة..

علموهنّ الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة.  
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزي عن يونس وبراءة  
تَهتك الستر بالجلوس أمام الستر إن عنت القيان وراءه<sup>19</sup>.

دعا أبو العلاء الرجال إلى توخي الحذر في تعاملهم مع النساء  
أو إلى الاستغناء عنهن تماماً لأنهن سبب البلاء وأساس كل داء لا يميز  
فيهن بين البكر والأيم.

توق النساء على عفة ليجزيك الواحد القيم  
فأبكارهنّ ابتكار البلاء وأيمهنّ هن الأيم<sup>20</sup>.

فكيف لرجلٍ مثل المعري أن يتزوج ويكون أسرة ويبنى مجتمعاً  
وهو يرى الغواية كل الغواية والفساد كل الفساد في هذه الأنثى التي  
لطخت شرفها بوحل الرذيلة في العصر العباسي، فاعتزاله للمرأة  
اعتزال للمجتمع وعزوفه عن الزواج عزوف عن إقامة علاقات  
اجتماعية وتعزيز لأواصرها، فعندما ماتت أمه ماتت حاجته للمرأة

أيضا وقد تنامت عقدة الشك عند المعري اتجاه المرأة في عصره فلم يأمن على نفسه منها ولم يجد عندها السكن أو الوطن - وهو الضرير - مما قوى إحساسه بالاغتراب في مجتمع عباسي متناقض خاص بالمفاسد والمعاصي فظلام ليله وسواد نهاره أيسر عنده من فتن السياسة وتفسخ الأخلاق وضلالة الدين وغدر المرأة.

لم يكتف المعري بالعزوف عن الزواج فقط بل أساء الظن بالمرأة أيضا وسوء الظن هذا ناتج عن نظرتة السلبية إلى الخلقة على وجه العموم جعلته يتمنى العدم لجميع الأشياء حتى النجوم والشمس والقمر.

فليث السماكين<sup>\*\*</sup> لم يطلعًا وليث المنيرين<sup>\*\*\*</sup> لم يُخلَقًا<sup>21</sup>

غلبت صورة المرأة الأم على حياة المعري فحملت بعض ملامح الإيجابية، أما صورة المرأة الأنثى فلم ينظر لها الشاعر إلا بعين الإحباط والتقليل.

الهوامش:

<sup>1</sup> - بسام خليل خريجة، "الاغتراب في أدب حلیم بركات"، مجلة فصول، المجلد 4، العدد 1، 1983، ص 209.

<sup>2</sup> - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 1/257، تقديم وشرح: وحيد كباية، حسن محمد، دار الكتاب العربي، 1997.

<sup>3</sup> - خير الله عصار، "مبادئ في علم النفس الاجتماعي"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 180.

<sup>4</sup> - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 1/271.

- 
- 5 - عباس محمود العقاد، "رجعة أبي العلاء"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة،  
القاهرة، مصر، 1984، ص 10.
- 6 - السيد محمد عبد العال، "المدخل إلى علم النفس الاجتماعي"، ط3، شركة سعيد رأفت  
للطباعة، القاهرة، 1985، ص 49.
- 7 - المعري أبو العلاء، ديوان سقط الزند، ص 61.
- 8 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 1/248.
- 9 - المصدر نفسه، ص 1/162.
- 10 - المصدر نفسه، ص 1/249.
- 11 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 2/58.
- 12 - المصدر نفسه، ص 43.
- 13 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 1/68.
- 14 - المصدر نفسه، ص 243.
- 15 - المصدر نفسه، ص 2/507.
- 16 - المعري أبو العلاء، ديوان سقط الزند، ص 166.
- 17 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 2/668.
- 18 - المصدر نفسه، ص 1/324.
- 19 - المصدر نفسه، ص 2/61.
- \* - الأيم الثانية: الحية الرقطاء.
- 20 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 342.
- \*\* - السماكان: برجان من النجوم.
- \*\*\* - النيران: الشمس والقمر.
- 21 - المعري أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ص 2/105.